عمان تغيّر الناس؛ لقد استطاع مشروع ايزنهاور العامل على توسيع القاعدة الاجتماعية للنظام في الاردن من خلال الانفاق الحكومي وعلى خلق مجتمع استهلاكي، يُظهر وكأن هناك انتعاشا اقتصاديا في البلاد، واستطاع هذا المشروع أن يشد الناس الى دوامة، ليسعوا وراء التقنيات الحديثة بالاقساط: الثلاجة والغسالة والتلفزيون والمقاعد الوثيرة. وهذا أبعدهم عن خط الكفاح الوطني من اجل تحرير البلاد من كل اشكال التبعية للامبريالية ومن أجل استعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني.

«هل هذا هو موقف الناس من نضالنا الدامي وعذاباتنا المريرة» (ص١٢٠). هكذا يتساءل زيادين بعد التقائه بمعارفه واقاربه في المدينة وبعضهم كان على صلة بالعمل الوطني. وما أن انتقل الى قريته في الكرك، حتى وجد الناس على حالهم من الفاقة والبؤس، وكان تعاطفهم مع المعتقلين العائدين مختلفا.

المسالة الثانية الباعثة على الاحباط والتي أدت عمليا الى ابتعاد عدد من هؤلاء المناضلين عن الحزب، هي المعاملة التي لاقوها من رفاقهم تحت قيادة فهمي السلفيتي، فبالاضافة الى استمرار السلطة في محاصرة هؤلاء المناضلين، بفرض الاقامة الجبرية على بعضهم، وقطع رزق البعض وسحب جوازات البعض الاخر، فان قيادة الحزب لم تعتن بهم، ولم ترسل المرضى منهم للعلاج، ولم تعمل على استيعابهم في عملية النضال التي كانت في الواقع في حالة من التردي، بسبب الفهم الخاطئ لجماعة السلفيتي لطبيعة التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على الاردن، لقد اعتقد هؤلاء ان اميركا تحاول ان تخلق من الاردن «نموذجا رأسماليا متطورا» لمواجهة «التجارب الاشتراكية» في المنطقة، في مصر وسوريا وغيرها. وهذا اثر عمليا على تحالفاتهم، وعلى مسيرتهم النضالية، فابقوا على تحالفهم مع عناصر وفئات غدت منحازة الى النظام، بعدما حصلت على مكاسب اقتصادية ذاتية. ولم ينتبه هؤلاء بالمقابل للمسالة الزراعية، حيث أدى واقع التبعية الاقتصادية الى خراب الريف وتقلص الزراعة كما هو شأن الصناعة في البلاد.

ويتحدث زيادين عن الاهمال وعدم الثقة التي عومل بها من قبل السلفيتي؛ فعندما حصل زيادين على جواز سفر واستأذن بالسفر الى المانيا الديمقراطية لزيارة عائلته، أخبره السلفيتي ان عليه شراء تذكرة الطائرة على حسابه الخاص ولم يكن قد مضى على خروجه من السجن غير ايام معدودة. وبعد وصوله الى برلين ارسل السلفيتي يبلغه أن لا يعود لان السلطة تزمع اعتقاله، وعندما شرع في الدراسة، بعث عنه التقارير السلبية واعتبره غير منضبط، وقبل انهاء دراسته بشهر، طلب من المسؤولين الالمان ان يقطعوا اقامته لحاجة الحزب اليه، وعندما عاد جزى اهماله فترة طويلة على الرغم من موقعه كعضو في اللجنة المركزية.

ويتوقف زيادين عند علاقته مع عائلته في برلين؛ فكما ذكرنا، بعد غياب ثمانية اعوام، يغدو الطفل الذي تركه ابن خمسة اعوام، مراهقا في الثالثة عشر من عمره والآخر ابن العشر سنوات لا يعرفه ولا يشعر بحاجة الى وجوده في البيت، والزوجة غدت عصبية مرهقة تثور لاتفه الاسباب، بعد أعوام من الكدح وتحمل مسؤوليات اكبر من طاقتها. وهو بعد السنوات الطويلة في الصحراء، وفي الزنازين، غدا متجهما يميل الى الجو الهادىء وتثير أعصابه ضجة الاولاد. ولد ترافق ذلك كله مع الاستقبال الفاتر لبرلين، العاصمة الاشتراكية، له «وكان شيئا عاديا ان تجد امامك العشرات والمئات من المشردين السياسيين من اربع ارجاء المعمورة، وكل واحد منهم يحمل على كاهله الام وحرمان عدد كبير من السنين» (ص١٢٩)، بالاضافة الى الحياة الشاقة المضنية التي واجهها في برلين: التدرب في مستشفى بعيد عن مكان السكن بحيث يبدأ يوم عمله من السادسة صباحا، وجهله للغة الالمانية، واشراف اساتذة عليه يصغرونه بـ ١٢ عاما على الاقل، والعمل براتب ضئيل اعطي له كمتدرب، وجهل باللغة، وكل ذلك بعد ان كان في القدس طبيبا كبيرا يشرف على مستشفى بـ ١٥٠سريرا، ثم تجاهل الرفاق له في برلين بسبب التقارير غير العادلة عنه من قيادة الحزب؛ لكنه بصلابة المناضل ومثابرته، يتمكن من شق طريقه، فيبدأ بالحصول على الاستقرار حتى ينهي تخصصه بعد ثلاثة اعوام من الدراسة يعود بعدها الى الوطن، لكن القدس تكون قد اصبحت في ايدي المحتلين فيستقر في عمان.